4 نحو أفراح الآخرة

لقد وصف الصالحون لنا سمات الابتداء لنأخذ بأحسنها، ولئن كان بعضنا ينسى، في ظروف غفلة، فإن الله خير الغافرين، وليس له أن يقعد بعد الذكرى مع القوم الغافلين، وإن عنده لذخيرة من فقه الأولين تعينه على سلوك سبل الرشد الفجاج الواضحة الموصلة إلى رب العالمين.

وإن تقوى القلوب في الحقيقة هي التي تقود تقوى الجوارح، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧].

وقال النبي ﷺ: (**التقوى هاهنا**)، وأشار إلى صدره.

" فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية، مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك، مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة -مع سكونه- صاحب العمل الكثير بمراحل "[1].

---

(١) الفوائد لابن القيم ١٤٠.

* استعلاء .. ثمنه التعب

وإنما أرشدك الصالحون طريق الاستعلاء والسيادة بالنية والهمة، وعليك تعبه وركوب مصاعبه، وذلك: أن السيادة نهج واضح الوعر.

وليس أمرها بالهيِّن، وإنما هي قول ثقيل ألقاه الله تعالى على نبيه ﷺ وعلى أتباعه: يجب أن يسودوا.

ويمكن لهذا الثقل أن تخففه النية، فيتعاظم تأثير التعب القليل بصلاحها، كما أشار الذين وصفوا الابتداء، ولكن هداية القلب وإضاءة النفس ونهضات الهمة إنما يذكيهن الجد، فمن أرادهن دائمات أدام جده، وهو معنى قولهم: (**استجلب نور القلب بدوام الجد**).

فلابد من الجد الدائم، لأن خواطر الفكر دائمة، وحركات الجوارح متصلة، فإن لم يكن الجد معهن دائمًا شغلهن ما هو دونه أو ضده، فيكون الهبوط من بعد الاستعلاء، يحذرك إياه عبد الوهاب عزام، وينبهك أن:

" الفكر لا يحد واللسان لا يصمت، والجوارح لا تسكن. فإن لم تشغلها بالعظائم شغلتها الصغائر.

و إن لم نُعمِلها في الخير عملت في الشر.

إن في النفوس ركونًا إلى اللذيذ والهين، ونفورًا عن المكره والشاق، فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق، ورضِّها وسُسْها على

المكروه الأحسن، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح إلى معاليها، وحتى تنفر عن كل دنية وتربأ عن كل صغيرة.

علِّمها التحليق تكره الإسفاف. عرِّفها العز تنفر من الذل.

وأذقها اللذات الروحية العظيمة تحقر اللذات الحسية الصغيرة"[1].

* وأنت صاحب إيمان

"وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان؛ لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس، وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبدًا وهو قاعد آمن ساكن، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبدًا بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبدًا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة.

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[البقرة:٢٥١]، وأول ما تفسد: فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح، وتسترخي معه الهمة، ويتلفها الرخاء والطراوة، ثم تأسن الحياة كلها بالركود، أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها، كما يقع للأمم حين تبتلى بالرخاء"[2].

(١) مجلة المسلمون ١/ ٥٩٥.

(٢) هذا الدين، لسيد قطب ١٠.

* وأتعب الناس من جَلّت مطالبه

* وأنت حر كريم

و" لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمد الأبعد في كل ما يحاوله، فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة، مستمدًا قوة من بعد قوة، محققًا السحر القادر الذي في نفسه، متلقيًا منه وسائل الإعجاز في أعماله، مرسلًا في نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم تثبت لكل ذي عينين: أنه النجم، لا شيء آخر "[1].

* وأنت صاحب غاية:

وإنما يوصل الداعية إلى غايته: **" شغفه بدعوته وإيمانه، واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسة للدعاة "**[2].

* وأنت طالب نفوذ إلى الله.

و" طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة؛ بحيث يكون رأسًا في ذلك مقتدى به فيه، يحتاج أن يكون شجاعاً مقدامًا، حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيله، زاهدًا في كل ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه، والطرق القواطع عنه، مقدامُ الهمة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل

---

(١) وحي القلم للرفاعي ١/ ٦٥.

(٢) للندوي في مقدمته لمذكرات الدعوة والداعية.

مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستنفره المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب "[1].

* محنة الفراغ والغفلة

ويجتمع هذا الكلام الحق ليقرر: أن محنة الداعية المسلم لا تكمن في معارضة الكفر له، ولا في سجنه، وتعذيبه، وتجويعه، بقدر ما تكمن في استرخاء همته والتذاذه بالراحة.

ما محنة الداعية إلا لهوه وغفلته وجلوسه فارغًا، وربما زاد فينفتح له باب من اللغو بعد اللهو.

تلك هي المحنة الحقيقية التي تفتعلها الجاهلية للدعاة، بما تعرض للناس من مغريات وأسباب لهو تلْفِت أنظارهم إليها.

وما انتصار الداعية إلا في: أن تعاف نفسه ما لا يؤثر في تقدم دعوته.

إن غفلة الداعية محنة لأنها صرفته عن نصر ممكن يحققه له الجد والعمل الدائب، وعن أجر وثواب أخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد.

وسيظل اسمنا مكتوبًا في سجل الغافلين الفارغين ما دمنا لا نعطي للدعوة إلا فضول أوقاتنا، وما دمنا لا نشغفها حبا ولا نتخذها حرفة.

---

(١) لابن القيم في الفوائد ١٩.

إن الداعية المسلم لا يملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة، وإنما هو -كما شبهه بعض الأفاضل- (وقف لله تعالى).

تمامًا كنسخة من كتاب نافع حين توقف لله تعالى وتوضع في مسجد من مساجد الله، فكل داعية موقوف لله، في جزء من أجزاء دعوة الله.

و إن فضول الأوقات ليست قليلة ومحدودة فحسب، وإنما هي أردأ ساعات اليوم، حيث يكون فيها الذهن والجسم متعبين أشد التعب.

و ما تجاوز الأستاذ المودودي رحمه الله أعراف أجيال الدعاة حين صارحنا في تذكرته القيمة، وقال:

" إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نارا متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابنًا له مريضًا ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئًا يسد به رمق حياة أولاده، ولا تزال تقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم وتعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية، وتركز عليها جهودكم وأفكاركم؛ بحيث أن شئونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين. وعليكم بالسعي ألا تنفقوا لمصالحكم وشئونكم الشخصية إلا أقل

ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم، فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكنًا بمجرد أقوالكم "[1]

و لم يتجاوز حين كرر وقال ثانية أنْ: " اسمحوا لي أن أقول لكم: إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وآبائكم وأمهاتكم فإنكم لابد أن تبوءوا بالفشل الذريع، بفشل لا تتجرأ بعده أجيالنا القادمة على أن تتفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة من الزمان، عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والأخلاقية قبل أن تهموا بالخطوات الكبيرة" [2].

إن من يطالب الآن بإلغاء الراحة فإنه إنما يستند إلى مادة واضحة في قانون الدعوة والدعاة سنها عمر الفاروق ﷺ، تنطق بصراحة أنَّ: **(الراحة للرجال: غفلة)** [3].

وجددها إمام المحدثين شعبة بن الحجاج البصري فقال: " **لا تقعدوا فراغًا فإن الموت يطلبكم**".

ذلك أن من أراد الراحة والسكون فإن الموت والقبر يزودانه منهما

---

(١) تذكرة دعاة الإسلام ٥٧.

(٢) تذكرة دعاة الإسلام ٥٩.

(٣) أدب الدنيا والدين، للماوردي ٨٢.

حتى يشبع. وكأننا – والله – قد أسرفنا في الغفلة، ولابد من عزيمة نفطم بها نفوسنا عن اللهو.

إننا حين نثبت جواز التمتع بالمباحات فلكي يعلم من نخاطبه أننا لا ندعو إلى مثل الطريقة المبتدعة التي كان عليها بعض الزهاد من الجوع والعري والرهبانية، وإلا فلا يزال جواب ابن الجوزي يصلح جوابًا لنا حين سأله سائل: **" أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي؟ "** فقال: **" عند نفسك من الغفلة ما يكفيها "** [1].

فإن اعترض معترض أتيناه بمثل كلام ابن القيم، حيث يقول: **"لابد من سِنة الغفلة، ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم"** [2].

فنحن لا ننكر ما في المعنى الحرفي لإطلاقات من عاب الراحة من إرهاق، وإنما نريد –كما أرادوا– تقليلها إلى أدنى ما يكفي الجسم، كل حسب صحته وظروفه، خاصة وأن المؤمن في هذا الزمن أشد حاجة للانتباه ومعالجة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل، ويسوده التواصي بالحق، والرذائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن أعين العلماء وسيوف الأمراء، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعًا مبصَرا بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف، وجعلت إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٤٢٢.

(٢) الفوائد ٤١.

القلوب، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور، فضلًا عن ارتفاع حكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها ، فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته أكثر مما كان يجب على السلف.

و ما أصدق تصوير إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله لهذه الحقيقة حين يقول: " **إن هذه المدنية السفيهة، المصيرة للأرض كبلدة واحدة، يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم وما لا يعني، بالجرائد صباحًا ومساء، غلظ بسببها وتكاثف بملاهيها حجاب الغفلة، بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة** ".

فكن خفيف النوم أيها الداعية المسلم لتحصل لك هذه الهمة العظيمة.

وانته من رقدة الغفلة فالعمر قليل

و اطّرح سوف وحتى فهما داء دخيل

وعبر الصالحون عن هذه المعاني أحيانًا بلفظ آخر سموه : حفظ الوقت، أو مراعاة الوقت.

فيرى الإمام البنا أن: " **من عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة فالوقت: هو الحياة** ".

أو كما قال في خطبة المؤتمر الخامس: " **إنما الوقت هو الحياة** " يخالف بذلك قول الماديين: الوقت من ذهب. وكان رحمه الله يحب أن

يتجاوز الداعية معرفة حق وقت يومه إلى التخطيط لصرف وقت غده، فينوي لكل ساعة نوع خير، و: " **ينام على أفضل العزائم** " [١].

وترْكُ الفراغ، والاستيقاظ من رقدة الغفلة، معناهما التعب، ثم التعب، واستفراغ الوُسع في العمل لله. نطق بذلك الإمام الشافعي، ونفى أن تصح مروءة داعية يطلب الراحة، فقال:

"**طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات، فإن أحدهم لم يزل تعبان في كل زمان** ". ولما سئل أحد الزهاد عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله، قال: " **إذا خلع الراحة وأعطى المجهود في الطاعة** " [٢].

فالداعية الصادق يخلع الراحة، ويعُود لا يعرفها، وتصبح عنده ذكريات شبابه الأول وصباه فحسب.

وأما الإمام أحمد فقد ترجمت سيرته في المحنة هذه الأوصاف عملًا، حتى قال لابنه: " **يا بني: لقد أعطيت المجهود من نفسي** "[٣].

يعني في المحنة ، وبذلك حدَّ حدًّا لا يسع الداعية النقصان فيه ولا التخلف عنه، فعلى الداعية بذل المجهود من نفسه، واستفراغ كل طاقته في خدمة الدعوة.

طريق رسمه الإمام أحمد لا يسعنا أن نحيد عنه ، ومقدار قدره للدعاة ليس لهم أن يقفوا دونه نصيبًا مفروضًا، هو: المجهود من

(١) مجموعة رسائل الإمام ٤٩٨.
(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٧٥.
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٣٣٩.

النفس، وعلامته حين المحن: الصبر على الأذى حتى الموت. وعلامته في حياتك اليومية: أنك إن جئت إلى فراشك ليلًا لتنام وجدت لركبتيك أنينًا، وفي عضلاتك تشنجًا، لكثرة ما تحركت في نهارك.

وإنما نسميه التعب، والأنين، والتشنج، لغرض تفهيم الداعية الجديد، لأن هذه الاصطلاحات هي لغة أهله وعموم الناس الذين تركهم من قريب، وأما في لغة الدعاة فهو محض اللهو الذي تهفو إليه نفوسهم، وعنهم نقله البحتري في وصفه لممدوحه حين يقول:

قلب يطل على أفكاره، ويدٌ تُمضي الأمور، ونفس لهوها التعب (١)

ومن لا يعلم موازين المؤمنين يظن ذلك حرمانًا من لذة، وخداع ألفاظ، وغواية اتباع الشعراء، ولكن من أوتي علم الكتاب يعرف: أن الراحة الحقيقية: راحة الآخرة، لا راحة الحياة الدنيا. ولذلك لما قيل للإمام أحمد: " **متى يجد العبد طعم الراحة؟** ".

قال: " **عند أول قدم يضعها في الجنة** " (٢).

ولما تعجب غافل من باذل وقال له: " **إلى كم تتعب نفسك؟** "

كان جواب الباذل سريعًا حاسمًا: " **راحتها أريد** " (٣).

" فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته جعله عمارة

---

(١) ديوان البحتري ١/ ١٧٢.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٢٩٣.

(٣) الفوائد لابن القيم ٤٢.

لقلبه وروحه. وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة في آخرته. وكلما منع شيئًا من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته. وكلما ناله هم أو حزن أو غم جعله في أفراح آخرته " [1].

ومن لمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف، كما يقول ابن الجوزي.

ولعمرو الله ما هو بظلام، ولكنها لغة اضطر لها كما اضطررنا ليعقل مراده الراقدون.

* * *

(1) الفوائد لابن القيم ١٨٩.

obeikandl.com

5 الأخوة شعار دعوتنا

التسبيح في دقائق الأسحار الغالية، والتعامل الأخوي الإيماني: ركيزتان متلازمتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة، وعينان نضاختان، تسكبان خيرًا للدعاة لا ينضب. " **إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم، فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه** " [1].

* التقوى أولاً

وإنما التسبيح عنوان الإيمان وإسلام النفس لله تعالى، والإيمان عنوان التصور الموزون، وضمانة الثبات أمام مخاطر الطريق.

"ركيزة الإيمان والتقوى أولًا.. التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل.. التقوى الدائمة اليقِظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢].

اتقوا الله -كما يحق له أن يُتقى- وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهدًا في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها. وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق، وجدت له أشواق. وكلما

(١) الظلال ٤/ ٢٢- ٣٢.

اقترب بتقواه من الله، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ وإلى مرتبة وراء ما ارتقى، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام!

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه، فمن أراد ألا يموت إلا مسلمًا فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلمًا. وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع: الاستسلام. الاستسلام لله، طاعة له، واتباعًا لمنهجه، واحتكامًا إلى كتابه. وهو المعنى الذي تقرره سورة آل عمران كلها في كل موضع منها.

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدي دورها؛ إذ إنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعًا جاهليًا، ولا يكون هناك منهج الله تتجمع عليه أمة، إنما تكون هناك مناهج جاهلية، ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية، إنما تكون القيادة للجاهلية "[1].

" لابد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي، فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل، ولابد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر، وللفضيلة والرذيلة، وللمعروف والمنكر، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال.

(١) الظلال ٤/ ٢٢- ٣٢.

وهذا ما يحققه الإيمان بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه، وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون.. ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية، ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد، ومن سلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك. ثم لابد من الإيمان أيضًا ليملك الدعاة إلى الخير، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق، ويحتملوا تكاليفه، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقل المطامع... وزادهم هو الإيمان، وعدتهم هي الإيمان، وسندهم هو الله.. وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد، وكل عدة سوى عدة الإيمان تفل، وكل سند غير سند الله ينهار"[1].

ويحدثنا إقبال عما فعله هذا الإيمان من توحيد التصور الذي انتبه إليه سيد قطب، فيقول:

وَحِّد الرئي لنا والفكرة ... كسهَام جمعتها جعبة

نحن فكر وخيال واحد ... ورجاء ومآل واحد[2]

فهذا أقصى ما يكون من الاتحاد، بأدنى ما يكون من الوسائل،

(١) الظلال ٤/ ٢٢- ٣٢.

(٢) ديوان الأسرار والرموز ٨٩.

فالرؤية واحدة، والفكر والخيال واحد، والرجاء واحد، والمصير واحد، كل ذلك يعطيه الإيمان، وما أسهل تناوش من ملك القلب لهذا الإيمان البسيط، ذي الأعطيات الثمينة.

* ونثني بالأخوة..

" أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة.. الأخوة في الله على منهج الله، لتحقيق منهج الله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام.. من الركيزة الأولى.. أساسها الاعتصام بحبل الله - أي عهده ونهجه ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، وعلى أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة!

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتنّ الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا " [(١)].

" وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين

(١) الظلال ٤/ ٢٣ - ٢٨.

الركيزتين.. **على الإيمان بالله**: ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله سبحانه، وتمثل صفاته في الضمائر، وتقواه ومراقبته، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال. **وعلى الحب**: الحب الفياض الرائق. **والود**: الود العذب الجميل. **والتكافل**: التكافل الجاد العميق.. وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغًا، لولا أنه وقع، لعد من أحلام الحالمين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض، ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان!

وعلى مثل ذلك الإيمان، ومثل هذه الأخوة، يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان"[1].

ومن هنا كانت هذه العودة إلى محاولة تأكيد معنى الأخوة كجزء من إحياء فقه الدعوة، فإن الأخوة شرعية دعوتنا وشعارها واسمها، وميثاقها الذي واثقتنا به، وكتابها الذي كتبته على نفسها، وما زالت تأتي دعوتنا المباركة بصائر جديدة من تجاربها المتكررة تسرع بها إلى ابتغاء كل وسيلة إلى هذه الفضائل وتجميع أنصارها إلى الله على التحابب، والتكافل، والتسامح، ومكملات هذه الرواسي الشامخات، وكمالها أن ترى من بعد وحدة الرؤية والفكر والخيال والرجاء والمصير: وحدة القلب والروح، بل ووحدة اللفظ أيضًا، فلا تكون هناك إلا صيحات واحدة. بحروف متقاربة، تعبر عن مفهوم واحد، كما أراد إقبال حين يقول:

---

(١) الظلال ٤ / ٢٣ – ٢٨.

نحن من نعمائه حلف إخاء قلبنا والروح واللفظ سواء [1]

فلم يقنع بوحدة القلب، حتى توحدت الألفاظ.

* عقد الأخوة

ويظل هذا الاتحاد يتنامى حتى يكون عقدًا واجب الوفاء، فقد تكلم ابن تيمية عن (عقد الأخوة) هذا، وبين أن الحقوق التي ينشؤها إذا كانت من جنس ما أقره النبي ﷺ في أحاديثه لكل مؤمن على المؤمنين فإنما هي: **" حقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابته لكل مؤمن على كل مؤمن وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة "** [2].

فيأتي العقد يؤكدها إذن، ولم يحصل خلاف إلا في التوارث عند عدم وجود القرابة كما كان الأنصار والمهاجرون يتوارثون بالتآخي الذي أقره النبي ﷺ بينهم أول مقدمه المدينة، فقد قال أكثر الفقهاء بنسخ ذلك، وأجازه أبو حنيفة وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه.

إن هذا العقد الأخوي يزيد الواجب الإيماني ثبوتًا، وما نراه إلا كبيعة سلمة بن الأكوع الثانية رضي الله عنه تؤكد بيعته الأولى حين كانتا في

---

(١) ديوان الأسرار والرموز ٨٩.

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية ١١/ ١٠١.

ساعة واحدة يوم الحديبية تحت الشجرة، كما جاء عنه في صحيح البخاري في قوله: (**بايعنا النبي ﷺ تحت الشجرة، فقال لي: يا سلمة: ألا تبايع؟ قلت: يا رسول الله قد بايعت في الأول. قال: وفي الثاني**)[1]، فكذلك المسلمون: أوجب الإسلام على بعضهم البعض حقوقًا، ويتبايعون بعقد أخوة في الثاني، زيادة خير، وابتغاء توثق، وعنصر تذكير، لتنشأ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة التي وصفها إقبال رحمه الله في رموزه حين يقول:

كل فرد بأخيه ائتلفا ... مثل در في سموط ألفا

لفهم في عيشهم معترك ... كل فرد بأخيه ممسك

من جذاب تتوالى الأنجم ... كوكب من كوكب مستحكم[2]

وهكذا، فإنه ليس من عمل للداعية المسلم اليوم أثمن من غدوة يهب فيها لدعوته – بفضل الله – ناشئًا يغمس نفسه فيؤزره، فيستغلظ، فيستوي على عقد الأخوة، يعجب الدعاة، ويغيظ به الكفار.

* ميزان التصاحب

وهكذا تكون الأخوة بين الدعاة هي الركن المهم في تربيتنا بعد الصلاة والتسبيح، وما من جزء من أجزاء الحركة الإسلامية يقذف بنفسه في ميدان العمل العام قبل إحلال معاني الأخوة الإيمانية في

(١) صحيح البخاري ٩ / ٨٩.

(٢) ديوان الأسرار والرموز / ٨٤.

أعضائه إلا ذاق وبال تساهله وتفريطه، ولا مناص من أن تدرج بدايته على طرق الإيمان واستغلال دقائق الليل الغالية، ويكون فيه (**أدب الأخوة**) مترجمًا في تناصح وتكافل وتحابب يجمع القلوب ويعلمهاالتحالم - إن لم يكن الحلم - عند إبطاء المقصر وتجاوز الملحاح، مثلما يعلمها المكافأة والوفاء والشكر عند إسراع المبادر وعدل خفيض الجناح.

لقد أحب الإمام البنا هذا الأدب للدعاة، ووضع له منهجا بحيث " **يرفع أخوتهم من مستوى الكلام والنظريات إلى مستوى الأفعال والعمليات** "[1]، ورأى رحمه الله من تآخي الرعيل الأول ما أقر عينه حيًا، وبرهان وفاء محبيه من بعده أن يكونوا دومًا عند محاسن هذا الأدب، وأن يفيئوا إليه عند أول انتباهه إذا أنستهم الغفلات.

إنها نعمة الأخوة.

يجعلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثمن منحة ربانية للعبد من بعد نعمة الإسلام فيقول: (**ما أعطي عبد بعد الإسلام خيرًا من أخ صالح، فإذا رأى أحدكم ودًا من أخيه فليتمسك به**).

ويسميها التابعي مالك بن دينار: روح الدنيا، فيقول: (**لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، والتهجد بالقرآن، وبيت خال يذكر الله فيه**). ويحكر لها الشاعر صفة الذخيرة، فيقول:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقات الذخائر

---

(١) رسالة التعاليم / المجموعة ٢٨.

ولهذا كثرت توصية السلف بإتقان انتقاء الأخ الصاحب، لتصاب الذخيرة الحقة، والروح الحقة، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين أنْ:

(إن لك من خليلك نصيبًا، وإن لك نصيبًا من ذكر من أحببت، فتنقوا الإخوان والأصحاب والمجالس) [١].

فأما أولًا: فقد عمموا صفة الخيرية بإطلاق تحكم الانتقاء، وعبروا عن ذلك بقولهم:

أنت في الناس تقاس بالذي اخترت خليلًا
فاصحب الأخيار تعلو وتنل ذكرًا جميلًا [٢]

ثم خصصوا ففسروا الخير بالتقوى، وقالوا:

نافس، إذا نافست في حكمة آخ، إذا آخيت، أهل التقى
ما خير من لا يرتجى نفعه يومًا، ولا يؤمن منه الأذى [٣]

ثم زادوا وذهبوا أبعد، فعددوا صفاتهم، يعينونك على دقة الاختيار.

أعلى صفاتهم: طيبة القول، ذكرها عمر ﷺ فقال: **" لولا أن أسير**

---

(١) كتاب الزهد لابن المبارك ٢٣٢.
(٢) نفح الطيب للمقري ٨/ ٦٧.
(٣) لأبي العتاهية في ديوانه ٢٥.

في سبيل الله، أو أضع جبيني لله في التراب، أو أجالس قومًا يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر، لأحببت أن أكون لحقت بالله"[١].

ومن صفاتهم: أن أحدهم: (يرفع عنك ثقل التكلف، وتسقط بينك وبينه مئونة التحفظ. وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول: أثقل إخواني علي: من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي)[٢].

ومن صفاتهم: ترك حضيض الدينار والدرهم، والسمو إلى العلا، وضربوا لذلك الإمام أحمد بن حنبل في انتقائه الأصحاب مثلًا، وذلك حين يقول الذي يطريه:

ويحسن في ذات الإله إذا رأى مضيمًا لأهل الحق لا يسأم البلا

وأخوانه الأدنون كل موفق بصير بأمر الله يسمو إلى العلا[٣]

ومن صفاتهم: مذاكرة الآخرة، كما قال الحسن البصري: " إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة "[٤].

ومن صفاتهم: الإيثار، وهو أحد أركان بيعة الشاعر صالح حياوي لهم حين يقول:

---

(١) الزهد لابن المبارك ٤١٦.
(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ١٨٨.
(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ١١٤.
(٤) إحياء علوم الدين ٢ / ١٧٦.

أبـدًا أظـل مـع التــقاة، مـع الـدعاة العـاملين

النــاشرين لــواء أحمــد عاليًــا في العــالمين

المنـصفين المـؤثرين عـلى النفـوس الآخـرين

معهم أظل، مع التـقاة، مع الدعاة المسلمين [١].

ومن صفاتهم: بذل النصح، فأحـدهم: **(صـالح يعاونــك في ديـن الله، وينصحك في الله)**.

* آفات المجالس

وهذا الانغـماس يـؤدي إلى الاجـتماع والمجالـسة بالتـالي، ولـذلك وجب التعرف عـلى سـيماء المجالـسة النافعـة، والابتعـاد عـن بعـض المعايب التي تـلحقها.

ويجمع ذلـك: تحري النفع في الدين فإنهـا الكلمـة الجامعـة المانعـة، والمادة الموجزة في قانون التآخي، يضعها زين العابدين علي بـن الحـسين ابن علي ﵁، فيقول: **" إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه "** [٢].

فشأن كل داعية ناشئ أن يرتاد لنـفسه المجـالس التـي يزيـد فيهـا إيمانه وعلمه، وأن يقصد المجالس التي تـنفع دينه، ولا يعرف مجـالس اللغـو واللهـو وقتـل الـفراغ.

---

(١) مجلة التربية الإسلامية ٧/ ٥٥.

(٢) تهذيب التهذيب ٣/ ٣٩٦.

وشرح ذلك إقبال بشطر حاسم، يريد لنا ألا نطيل القول بعده، فقال يدعو الله عز وجل:

هب نجيّا يا ولي النعمةِ محرمًا يدرك ما في فطرتي

هب نجيا لقِنا ذا جنة ليس بالدنيا له من صلة [1]

فهذا جماع القول:

إن صاحب الداعية المسلم داعية آخر ليس بالدنيا له من صلة.

صلته بالآخرة، وشوقه إلى الجنة.

بينه وبين الدنيا انقطاع وجفاء.

إن تحريت عنه وجدته.

إنه هو صاحبك.

آخه، وأحببه، واصحبه، وأعطه مثل الذي يعطيك، وإلا فإنك أنت العاجز، فإنه كان يقال:

"أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر بهم".

فاطلب الإخوان، نرفع عنك صفة العجز.

ولابن القيم كلام موجز شامل في ذلك، يدل على تجربة داعية من

(١) ديوان الأسرار والرموز ٧١.

obeikandl.com

أهل الوعي، شخَّص فيه أخطار المجالس فقال:

" الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تزين بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود "[1].

والذي يؤسف له أن مخاوف ابن القيم هذه تحولت إلى واقع تحياه بعض مجالس الدعاة الحالية، ووجد التزين وسيلة ليظهر فينا، وزادت الخلطة بين الدعاة عن مقدارها الذي تحتاجه الدعوة ، وتحولت إلى شبه بطالة وشهوة تلهي عن مقصود تجمعنا في متابعة العمل مع الناشئة والجدد، وفي الانطلاق خلال المجتمع العام لتبليغه كلمة الإسلام.

(١) الفوائد لابن القيم ٥١.

* والمرء يعجب من صغيرة غيره!

و لو أن عادتَي التزين والبطالة تقفان عند حدهما لعولج أمرهما بمجرد استنهاض وتذكير خفيفين، ولكن هاتين الآفتين تتعديان في آثارهما، ويتولد عن اجتماعهما خلق الضيق عن العفو، بينما يشير استقراء الحياة الجماعية إلى ضرورة خلق التسامح والمرونة لمن يحياها.

وقد يظن البعض أن مثل هذا الكلام أقرب إلى مواعظ العامة منه إلى بحوث فقه الدعوة، ولكن من يعاني إدارة العمل اليومي للدعوة الإسلامية يدرك ضرورته، ويعرف كم من الترف، بل والخطر، يكمن فيمن يتعالى عن مثل هذه المواعظ ليهمس بمعاني فنون التخطيط والعمل السياسي في آذان من تضيق صدور بعضهم عن معاني التسامح والعفو عن صاحب الزلة والخطأ، ولابد من اقتران التوعية العملية للداعية المسلم بالتربية الخلقية الإيمانية، ولابد من سيرهما معًا.

وهذا هو مصدر إصرار الأقدمين والمعاصرين على التوصية بسعة الصدر، والتحابب الأخوي.

يقدمهم الفضل بن عياض فيقول: **" من طلب أخًا بلا عيب صار بلا أخ "** فضع في حسابك عندما تعقد (عقد الأخوة) أن من تتعاقد معه غير معصوم.

ويأخذ الشعراء دورهم في التوصية، فيقول مشرقيهم:

لا لوم في خطأ ولا تثريبا

ويقول مغربيهم:

ســـــامح أخـــــاك إذا أتـــــاك بِزلّــــــة

ويقول ثالثهم:

إذا ما بدت مــن صاحب لـك زلـــة

فكـــن أنــت محتــالًا لزلتــــه عــذرًا

أحب الفتى ينفي الفـواحشَ سمعُــه

كــأن بــه عـــن كــل فاحـشـة وقـرا

سليم دواعــي الـصدر لا باسـط أذى

ولا مــانع خـيرًا، ولا قائــل هجــرا

ولكن كم أرتـنا الأيام من قال هجرا، وتراه إذا ما دعوته إلى اللـين يعبس ويبسر، ويذهب مغاضبًا، كأنما تدعوه إلى شيء نكـر، وإنـما هـي سذاجة نـفسه نريد أن نقيه إياها، وإنما هو تربص العـدو نريـد أن نبعـده عنه، بما عرفنا عن عدونا من قعوده للدعاة صراط أخوتهم المستـقيم.

وهاؤم تـفحصوا تاريخنا، كم من منتصر لنفسه استعجل فخاصـم، فما استطاع من قيام وما كان منتصرًا، ولفتـه دوامة العيش المعقد فضاع في خِضَمّها منسيًا، يأكل ويشرب، وليس له من بعد ذلك نوع وجود.

إن جموع هؤلاء المغاضبين إنما تأخرت وضاعت في تيار الـدنيويات بما كانت بموازين الأخوة تخل، ولو أنهم استـقاموا على الطريقة الأولى وراغوا إلى فقه الأخوة الموروث، لما مسّهم اللغوب والضياع.

إن الفقه الذي ورثناه عن التابعي بكر بن عبد الله المزني ينص على إنك: **" إذا وجدت من أخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثتَه، فتب إلى الله تعالى، وإذا وجدت منهم زيادة محبة فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله تعالى "**.

فاتهم نفسك إذا عوملت بجفاء أو رأيت نوع تقصير في حقك الذي تظنه قبل أن تبادر بالهجوم.

إن هذه النصوص القديمة من فقه الأخوة الإيمانية، يصوغها عبد الوهاب عزام في العصر الحديث في بيتين جامعين من مثانيه ويقول :

في فؤادي بحران: ملحٌ وعذب وبه صرصر وريح رخاء

فهو مُرّ على البغاة عصوف وهو عذب لصاحبي وصفاء [1]

فأنت مطالب أيها الداعية المسلم أن تملأ قلبك من مشاعر الأخوة في الله لإخوان العقيدة بقدر ما يجب أن تضع فيه من مقت أهل الباطل البغاة.

* * *

(١) ديوان المثاني ٣٨.

6 أشجار الإيمان

وحدة العبودية وتكاملها، في أجزاء هذا الكون لله تعالى الذي خلقه حقيقة يراها المتفكر، إذا استطاع أن يفلت من الصخب الملهي ويتأمل في هدوء ورَوية.

منها: عبودية لا تشوبها الوساوس لبساط الأرض جميعه؛ حشائشه والباسقات، نبهك القرآن لها، في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن] .

قال الطبري: " يعني بالنجم: ما نَجَم من الأرض من نبت، وبالشجر: ما استقل على ساق "[1].

فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تثقله الغفلة، يديم له سجودًا قلبيًّا، آيته الرضا عن الله، والتسليم لحكم حلاله وحرامه، به يستكمل سجود جبهته مغزاه.

ومتى ذاق المؤمن، بالخلوات المسترسلة، لذة مراقبة هذا السجود الأخضر، المتوشح بألوان الزهر، وأذن لقلبه أن يبالغ في الهبوط مقلدًا، حتى يلامس أوطأ الإخبات؛ نادى غيره للمشاركة، وعرض عليه الرفقة، منخلعًا عن حسد واحتكار.

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٥١٦ – طبعة دار المعارف.

وتلك هي دعوة إقبال، لما ظفر بسر السياحة الإيمانية الصامتة، في البراري الناطقة، ونبهك إلى إنصات واجب، لتسبيح دائب، وأوصاك أن:

دع الدور واطلب فسيح البراري وانظر إلى صفحات الجمال
على حافة الماء دون تأمل ترقق ماء زلال
وحدق إلى نرجس ذي دلال وقبِّل عيونًا له كاللآلي[1]

و كان عبد الوهاب عزام أول مجيب له، وطفق يستغرق في التأمل، فرآه جاهل بما هنالك فأنكر عليه، فقال:

لست أخلو لغفلة وسكون وفرار من الورى وارتياح
إنما خلوتي لفكر فهي زادي وعُدّتي لكفاحي[2]

وما زاد بهذا على أن جدّد مذهبًا سالفًا، وعرفًا عند أول المسلمين، في استلال ساعة من بين حركاتهم في التعلم والتعليم، والأمر والنهي، وضرورات المعيشة، يميلون فيها إلى التفرد خارجًا، والركون إلى أرباض مدنهم، والجلوس بين الزروع، يرجون لأنفسهم بصائر وتذكرة.

وروى ابن القيم أن شيخه ابن تيمية، رحمهما الله، كان يتركهم غاديًا بعد الفجر مرارًا، فراقبه، فوجده يعتزل في غوطة دمشق وحقولها، حتى غدت عنده عادة.

---

(١) ديوان رسالة المشرق ٣٠.
(٢) ديوان المثاني ١١٧.

وما ذاك على أسلوب القرآن بغريب، ولا على رموز النص الشريف المأثور وتشبيهاته، بل هو ارتباط واضح خلالها بين الخضرة وخصال الفطرة، ترك طابعه على طرائق المؤمنين في التعبير والتمثيل، في نحو على منحاهما، يدلك على قلوب فقهت المناسبة، واستوعبت الإشارة، وشهدت الرابط الجامع في لقيا الشجر ومعاني الإيمان .

إنها غابة من أشجار الإيمان، فيها أيك ملتف متشابك، تجعل سيرك في ظل وارف، ومداعبة من زكي العبيق.

* تفجؤك فيها شجرة التوحيد

وهي شجرة غرسها القرآن، تستلقي تحت أغصانها حين تقرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم] .

قال ابن القيم: " فإنه سبحانه شبّه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين ، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال

الصالحة كل وقت، **بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حقّ رعايتها** "[1].

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح، وقال الربيع بن أنس: ذلك المؤمن، أصل عمله ثابت في الأرض، وذكره في السماء.

قال ابن القيم:

" ولا اختلاف بين القولين، والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به، وهو مشبه بها "[2].

ومن مكانك تحتها تشم عبير ورود بقربها، من شجرة تسمى **شجرة الطاعة**، شهدت منحة الرضوان، لما أسبغت، يوم نزلت: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

ويفتأ المستظل بظلها اليوم ساكن الفؤاد، غير مضطرب لحرمان وفوات، ينتظر فتحًا لحركة الإسلام تندكّ به صروح الضلال، قد قدّم له التبايع على الموت ثمنًا.

فإن اختار الله لك المحنة سبيلًا لهذه المنحة، وحَزَبَك الأمر؛ لجأت

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٨٨ ـ طبعة الوكيل.

(٢) المرجع السابق نفسه.

obeikandl.com

إلى شجرة الترحاب، تطلب الطمأنينة عندها، هازًّا جذعها، لتغدق عليك من بركتها، وتفعل ما فعلت مريم عليها السلام لما ضاقت عليها الأرض، فجاءها نداء: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ [مريم].

فتأكل رطيبات وتقنع بها، عازفًا عن بطر المترفين، وتغرف من ثَمّ من سَرِي بين يديك يجري، مستعليًا بعزة دونك مدارجها، ترقى إليها وتَسري.

و للنبي ﷺ غِراس في هذه الغابة، كما أن الحكمة أشهدت الشجر مواقف من سيرته الشريفة، إيماء إلى هذا الارتباط، ربما، وإثارة لتطلع الغافل.

منها: شجرة الوفاء، عنوان امتزاج الأرواح الذاكرة، تنطق بالشكر، وتحفظ الفضل لأهله، وتعلن عِرفان الجميل.

وهي نخلة، تَنَهَّدتْ عند الفِراق.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

"كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ "فلما وُضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العِشار، حتى نزل النبي ﷺ ، فوضع يده عليه " [1].

أي كأصوات النياق التي أثقلها حمل بطنها وقَرُب مخاضها. وتلك من معجزاته، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ١١.

جذع أنيلَ الشرف، فوفى، واجتمع له الحَنين، فاستبدَّ به استبدادًا فرق منه الأنين.

وما منا من أحد إلا وفي بيته ديوان حديث، وكأن النبي ﷺ واقف عنده يُفقّهِه أمرَ دينه، ويُلقنه شرائع الإسلام، والوفاء يليق لمثلنا، نتعلمه من الجذع، ونترجمه صُورًا من الاتّباع والاقتفاء.

وشجرة خامسة تسمى **شجرة الثبات، تلوذ بها يوم تتوزع الناس الأهواء، فتطلب النجاة معتزلًا الفِرَق كلها، " ولو أن تعضّ بأصل شجرة"** [1].

وتصون لسانك إلا عن قولك مع عبد الله بن أبي مُليكة: **" اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نُفتن "** [2].

فلأمر ما مما نقول كان هذا الاعتصام بالشجر، في إلحاح يزيد معه المعتصم شدّ نواجذه ضاغطًا، لو تخيّلته، لتردّد قلبك يهتز في قلق، بين رهبة من استرخاء يعتري فيَجرِف، وأمل في إتمام يُنجي.

إلّا أن رحيق هذه الشجرة يرويك إذ الناس تلهث عطشًا، ويبل حلقك باردًا، فتضاعف العضّ مُبالغًا، كأنك تمص الثبات راضعًا.

وسادسة تُعرف بشجرة الأنس، تُصاحبك عند الوحشة، وتخفف رطوبتها جفاف هفواتك. غَرَسها النبي ﷺ لما مَرَّ بقبرين يُعذبان،

(١) صحيح البخاري ٩/ ٦٥.
(٢) صحيح البخاري ٩/ ٥٨.

فكان أن: " **أخذ جريدة رطبة، فشقها بنصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يارسول الله: لِمَ صنعت هذا؟ فقال: لعله يخفف عنهما ما لم يَيْبسا** " [1].

ففهم بُريدة الأسلمي ﷺ من ذلك أنها سُنة، فأوصى أن يُجعل في قبره جريدان، فما زال الناس يُقلدونه في ذلك.

وقد لا نخلو من لمم يكدر صفو العمل، أو من تَتَبع بفضول لما في يد أهل الدنيا من أموال الاستدراج، يكون معه الأرق المتلف، واضطراب النوم، فيضعف الاستعداد للفجر الآتي، ولعل سويعة لك تحت سعف النخيل تخفف لهفك.

ثم شجرة المفاصلة، شهدت كيف يُتمم استقلال الوسيلة عند المسلم استقلال الهدف، وذلك لما تبع مشرك جيش المهاجرين والأنصار حين سيره نحو بدر، يريد أن يقاتل معهم، حمية ونصرة لقومه، فلما وصلوا شجرة ضخمة كانت مَعْلمًا في الطريق، ذكرتها عائشة ﵂: لحق بهم، فالتفت إليه النبي ﷺ وقال:"**ارجع، فلن أستعين بمشرك**" [2].

فمضى ذلك أصلًا، لم يطرأ عليه الاستثناء إلا في حوادث ضيقة.

وتحاصر جبهات الأحزاب اليوم دعوة الحق، تبثّ إرجافها، متهمة إياها بتخلف عن ركب سياسي مجتمع، فيقصد الدعاة الأشجار المعالم الضخام، فتشهد بانتفاء اللقاء، وعيب النزول بعد الاستعلاء.

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ١٤.

(٢) صحيح مسلم ٥/ ٢٠١.

ولما فَقه الناس هذه الأمثال: تتابعوا في سباق يغرسون، فكانت شجرة ثامنة عرفت بينهم أنها شجرة الاغتفار.

وهي شجرة عنب كثيرة الثمر، فكان غارسها إذا مَرَّ به صديق له اقتطف عنقودًا ودعاه، فيأكله، وينصرف شاكرًا.

فلما كان اليوم العاشر: قالت امرأة صاحب الشجرة لزوجها: ماهذا من أدب الضيافة، ولكن أرى إن دعوت أخاك، فأكل النصف، مددت يدك معه مشاركًا، إيناسًا له، وتبسطًا وإكرامًا.

فقال: لأفعلن ذلك غدًا.

فلما كان الغد، وانتصف الضيف في أكله مدّ الرجل يده وتناول حَبّة، فوجدها حامضة لا تساغ، وتفلها، وقطّب حاجبية، وأبدى عَجَبه من صبر ضيفه على أكل أمثالها.

قال أبو حيان التوحيدي: فقال الضيف:

قد أكلت من يدك، من قَبلُ على مر الأيام حُلوًا كثيرًا، ولم أحب أن أريك من نفسي كراهة لهذا تشوب في نفسك عطاءك السالف [1].

و ما هذه من قصص الأغاليط، ولكنه مَثَل ضُرِب لك أيها الأخ الداعية فاستمع له، ومجاز تدلف منه إلى العدل مفتوح أمامك.

فليس فيمن حولك من انبغت له العصمة واستقام له الصواب، فإن أخطأ معك أخ لك فلا تجرمنَّك كبوته على الهجران والتأفف،

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٢١.

obeikandl.com

والضجر والانتقاص منه، بل ولا على العتاب ، إنما تتصبر، وتكظم وتعفو في سرك مستحضرًا جمال سابقاته، وجياد أفعاله، وحلو مكرماته، إذ لعله قد أعانك على توبة ، أو ظاهرك عند تعلمك رديفًا ورفيقًا وسميرًا، أو علّمك بابًا مما علّمه الله وطريفة.

فإن استفدت ونشرت الإنصاف، فقد أذن لك في أن تستلقي تحت شجرة هيفاء، كثيرة الثمار والورود، يخلب نظر الرائي جمالها، وتُنطق المستمتع حمدًا لرفيع ذوق غارسها.

اسمها: شجرة الزهد.

وهي شجرة قلبية فريدة، ولم يَسبق صاحبها أحد إلى استنبات مِثلها، فجاءت بدعة، ووصفها فقال:

غَرسَ الزهدُ بقلبي شجرة ... بعد أن نقّى بجهدٍ حَجَرَه

وسَقاها إثرَ ما أَودَعها ... كَبِدَ الأرضِ بدمعٍ فَجَّرَه

ومتى أبصرَ طيرًا مُفسدًا ... حائمًا حول حِماها زَجَرَه

نمتُ في ظلٍ ظليلٍ تحتَها ... رَوّح القلبُ ونَحى ضَجَره

تم بايعت إلهي وكذا ... بيعة الرضوان تحت الشجرة

فانظروا أطوار رعايته لها، وعنايته بها، وكيف بدأ بتطهير قلبه مما هنالك من أحجار الحسد والرياء والتكبر وسوء الظن، وكيف سقاها بدموع الخشية في الأثلاث الأخيرة، وكيف زجر شياطين الإنس والجن لما حامت حول بذرتها تبغي التقاطها، وقلّده، وافعل فعله

تورق لك أختها، وتتفتّح لك منها الزهور بألوان وعطور، فتنام تحتها كما نام، تستشعر شعور أهل بيعة الرضوان، وكأنك فيهم ومعهم، تغمرك نشوة البيعة على الموت في سبيل الله دفاعًا عن الإسلام.

ووعى الإمام حسن البنا رحمه الله فَن زراعة أشجار الإيمان، فغرس لك الشجرة العاشرة، وهي **شجرة الحِلم**، وصفها مخاطبًا الدعاة فقال: **" كونوا كالشجر، يرميه الناس بالحجر، ويرميهم بالثمر "**.

ولقد أجاد وأفاد، فإن في أكثر الناس سرعة جنوح إلى الجهل، يميلهم إلى تكذيب دعاة الإسلام وإيذائهم بالباطل، ولو جهل الداعية مثل جهل الجاهلين، وقابل الإساءة بإساءة، لعفت رسوم الإحسان واندثرت، ولكنه الصدر الواسع، والاحتساب، والاستغفار لقومه الذين لا يعلمون.

أما بعد:

فليس الإمام البنا بآخر غارس في غابة الإيمان، وإنما وضعنا في يدك الفأس، وأعطيناك البذر، فابذر: تجد الثمر وفيرًا مباركًا.

فاخرج وتجوّل متأملًا: تجد أخلاق الإيمان قد مازجت الخضرة، وإن لكل شجرة تعبيرًا عن شيء من محاسن الخصال يمازج سجودها، ويقترن بمظهر عبوديتها لله خالقها.

ومن ها هنا كانت سويعات الخلوة بين الشجر سبب ذكرى للغافلين، وسبيل إنابة.

و مما ينبيك عن صدق ظننا الحَسَن هذا بالأشجار أن الله سبحانه ضرب مثل الكلمة الخبيثة المنافية للتوحيد كشجرة خبيثة، لكنها ليست قائمة، بل اجتُثّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار.

فليس من شجر واقف إلا ويعظك بكلمة من الإيمان.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

7 حصار الأمل

هذه الحياة، بجوانبها العديدة، وتبدلات المجتمعات التي تحياها، قد لا يفهمها جيل المسلمين اليوم من دون الرجوع إلى نظرة واقعية لها، متسمة بالبساطة، مستقرئة للمحسوس المشاهَد منها.

ولا ريب في أن تجاوز مجرد الاستقراء، وفهم الأمور معلَّلة مسبَّبة، هو الوضع الأمثل، المؤدي إلى الإيمان الأتم الأوفر، وهو لما يُظن أنه من ظواهر التناقض أوجب، ولذلك جاءت عقيدة الإسلام تُحلل وتُعلل، ليحيا مَن حَيَّ عن بينة. ولذلك أيضًا حاولت الفلسفات أن تفهم محركات الحياة، فقاربت كاقتراب سقراط من عقيدة التوحيد، أو أبعدت، كبعد جمهور المحاولين.

و بتفسيرات مَن شَرَحَ الكمال العقيدي الإسلامي، أو من خلال محاورات الفلاسفة في محاولاتهم الوصول إلى المثالية اتسع القول في القدر، والجبر والاختيار، وسر تردد النفس بين التقوى والفجور، وحكمة خلق الشيطان وإلقائه للنفوس حتى لتختار الضرر الواضح وتأتي بما لا يأتلف مع الفطرة، وغَلَبَة أهل الشر أحيانًا مع كثرة إفسادهم وإرهاقهم للناس، وكثرة محن أهل الخير وصدود الناس عنهم مع عظيم بذلهم ونفعهم للناس، وأمثال هذا. ولكن حياة اليوم اكتنفها التعقيد المادي من كل أركانها، وتركت كثيرًا من المسلمين – كشأن أغلب الناس

– في زحمة من المتطلبات والحوائج تسلبهم التفرغ لتأمل ساكن يحللون فيه ويعللون.

ولذلك لم يعد هذا النظر التحليلي بممكن للجميع، فضلًا عن أن يكون مفهومًا للجميع، مع أن المسلم مطالب ومكلف في الوقت نفسه بأداء الواجب المفروض عليه في التأثير الخيِّر في الحياة، بالأمر بالمعروف، والدعوة إليه، والنهي عن المنكر، ملزم به إلزامًا، مُضيّق عليه في الاعتذار إزاءه.

ومن هنا تفرض سرعة صراعنا الحاضر مع أشكال الكفر الجديدة أن نلجأ، بسرعة توازيها، إلى بساطة النظرات الواقعية ؛ لإسعاف المسلم القائم على ثغور هذا الصراع بقناعة وشجاعة تدعانه يلج دروب البذل التي تفرضها واجبات رقابته على العالمين، أممًا وأفرادًا، وأمره ونهيه، مقومًا لهم ومُعدلًا.

ولن تجد الحركة الإسلامية ثنية بعيدة عن البدعة تطل بدعاتها من فوقها على منظر بسيط لحقيقة الحياة، شامل في رؤيته، كما تكون إطلالتها على حقيقة الموت ، هذه الحقيقة المستغنية عن الدليل والتحليل، والتي تؤذن فيهم وفي الناس كل صباح ومساء.

* عظمة المشهود : دليل الغيب

وذاك من كمال عقيدة الإسلام وتمام فن المؤمنين بها في الدعوة إليها، أنها وأنهم في حرص على أن يسلك المتحيِّر أو المتردد الطريق الأدنى إلى الإيمان.

والمثل في ذلك كمثل الذي استغلقت عليه الغيوب التي أخبر بها الأنبياء عليهم السلام، من البعث والحساب، والجنان والنيران، فتمر به على سيرة المصطفى ﷺ، تريه إعجاز ما بين صدعه بالتوحيد فريدًا مكذّبا، وبين صدع المؤذنين بالتكبير قبل نهاية سيرة الراشدين من خلفائه على كل روابي أرضين المدنيات، فتجعل رؤية إعجاز السيرة باب تصديق يدلف منه إلى ما يكاد أن يكون رؤية لذلك الغيب، وتكون قد جعلت الإيمان بالرسول ﷺ سببًا للإيمان بالله، ولا نعلم فقيهًا يمنع ذلك، غير الباقلاني، فإنه يوجب الإيمان بالله تعالى قبل الإيمان برسوله ﷺ، وليس لمنعه وجه ظاهر.

هذا بَلْهَ عن امتلاء القرآن بنداءات بسيطة ودعوة إلى تفكّر في خلق السماء والأرض يقود إلى الإيمان بالله.

وكل ذلك من وجوه كمال عقيدة الإسلام، بما نوّعت خطابها لأصناف العقول ومقادير النباهة، فمن أشكل عليه التعليل أدخَلَتْه من باب ما يمكن حِسه، وعوّضت عن التعليل بتكرار التذكير.

والواقعية التي نريد أن نستفيد منها اليوم ليست إلا التي وفرتها عقيدتنا منذ أبعد الأمس، حين أطنبت في التذكير بالموت، وأنذر كِتابُها سكرةً لابد أن تميد لها كل نفس مهما كانت عنها تحيد.

ولهذا وجب على خطة الحركة الإسلامية التربوية أن تعتمد التذكير بالموت ضمن أسسها، وتأخذ بيد كل داعية ليلمس لمسًا قريبًا حقيقته وتفاهة الحياة، فينطلق من بعدُ انطلاقته في البذل، ويتخلص من ثِقلة إلى الأرض تحاول الأموال أن تُركس كل متزين بها إليها.

* لوحة من الفن الإسلامي

ولئن جمع قادة الحروب جنودهم قبل كل معركة، وحلّقوا بهم حلقة، ليرسموا لهم على الأرض خطة تعبئة لحصار عدوهم، فإن على قادة الحركة الإسلامية أن يرسموا قبل ذلك لحلقات الدعاة إلى الله خطة حصار الأجل للأماني الكواذب، يذكرونهم إياه، كما رسمه النبي ﷺ ذات يوم لأصحابه على أرض المدينة، ففتحت لهم – لما وعوا خطوطه – المدن.

و كان فيهم يومها: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فوصف فقال: **" خط النبي ﷺ خطًّا مربعًا، وخط خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به – أو: قد أحاط به – وهذا الذي هو خارج: أمله، وهذه الخطط الصغار: الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا: نهشه هذا "** [1].

وكان فيهم أيضًا: أنس بن مالك رضي الله عنه ، فوصف، فقال: **" خطَّ النبي ﷺ خطوطًا، فقال: هذا الأمل، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب "** [2].

وفي رواية: مثل ابن آدم جنبه تسع وتسعون مَنِيَّة، إن أخطأته وقع في الهَرَم.

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ١١١

(٢) المرجع السابق نفسه.

و اكتملت بهذه الخطوط الشريفة لوحة من الفن الرمزي التجريدي فريدة.

إنه الإنسان الضعيف تغزوه الأعراض غزوًا فيه إلحاح. عدوى، أو سرطان، أو حريق، أو غرق، أو زلق، أو سقوط، أو اصطدام، أو لدغة، أو تسمم بطعام، أو طلقة تائهة.

فإذا نجا من كل ذلك ؛ كان له في الهرم، وضغط الدم وارتفاع نسبة السكر تأديب أيُّ تأديب.

فإن أطال النَفَس اقتص منه الموت .

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾[الجمعة:٨]

تعددت الأسباب والموت واحد، يحاصر الأمل الشارد الذي يتوهم الإفلات حصارًا شديدًا.

أمل أبيض وضّاء، كلما برق زهت في نظر صاحبه الأموال، والحِسان، والعطور، والقصور، والمناصب، والشهادات، فينسى مع نظره المنسرح المسترسل متطلبات دعوته، ويصد عينه عن أرض مقدسة يفسد فيها يهود، ولا يعود أنفه يشم رائحة شواء دعاة الإسلام في الصومال، ولا نتن جثث الأتراك تحت حائط في قرية قبرصية، وتتناسى أذنه وقع أحذية عساكر الهنادك في البنغال..!

لكنه لو نظر ببصيرته لعرف أن أمله الوضاء إنما يلفه محيط أسود حالك، يتيه فيما دونه من الظلمات ما لم يتبع في مشيه مخرجًا تدل عليه التقوى.

فهو تَرَقُّب جميل، لكنه يتنغص.

وظل ظليل.. لكنه يتقلص.

ومطامع وراء الأودية والمفاوز، وليس هو لما قُدر له بمجاوز.

وأنفاس قبل كل ذلك.. تُعدُّ.

ورحاله.. تُشدّ.

وعاريته.. تُرد.

والتراب من بَعد.. ينتظر الخد .

فإنه ليس عُقبى الباقي غير اللحاق بالماضي.

وعلى أثر من سَلَفَ.. يمشي من خَلَف.

وما ثَمَّ إلا أمل مكذوب..... وأجل مكتوب.

* رؤية تمتد

و" إن هذا النظر، الذي وراءه التذكر، الذي وراءه التقوى، التي وراءها الله، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفِّيها أربع مرات، حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر، وآخر وجودها التلاشي "[1].

و" إن الذي يعيش مترقبًا النهاية يعيش مُعدًّا لها ، فإن كان مُعدًّا لها عاش راضيًا بها ، فإن عاش راضيًا بها كان عمره في حاضر مستمر،

(١) وحي القلم للرافعي ٢/ ١٩٨، ١/ ٧٥ مع جمل سبقتهما للزمخشري وابن الجوزي.

obeikandi.com

كأنه في ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه ما دام ينقاد معه وينسجم فيه، غير محاول في الليل أن يبعد الصبح، ولا في الصبح أن يبعد الليل "[1].

و بمثل هذا النظر والترقب الذي أكسبه الأنبياء عليهم السلام من قاتل معهم من الربّيين صفت النفوس، وثبتت بركيزة من الطمأنينة سكنت معها وهدأت، فرأت حين زال الاضطراب إطار الحقائق الترابية للشهوات الدنيوية، فزال ما هنالك من تطلع زائد.

ثبات له من الرسوخ إزاء الأماني مثل الذي كان ما بين رؤية إبراهيم عليه السلام للأفولِ، فلم يحب الآفلين، وبين بقية من حنيفيته – كادت أن تتصل ببعثة نبينا محمد ﷺ – أَرَتْ أمية بن أبي الصلت حقائق الحياة، فكاد أن يسلم، فصرخ فيما حوله من جاهلية:

اقترب الوعدُ، والقلوب إلى اللهو تصارع
وحب الحياة سائقُها تجددا
ما رغبةُ النفسِ في البقاء وأن
تحيا قليلًا والموت لاحِقها؟
أمامها قائد إليه، ويحدوها
حثيثًا إليه سائقُها
قد أيقنت أنها تصير كما
كان يراها بالأمس خالقُها

(١) نفس المصدر السابق.

وأن مـــــا جمّعــــــت وأعجبهــــــا
مــــن عيـــشــة مُـــرة مفارقُهــــا
مـــن لم يَمُـــت عَبطـــة يمــت هَرَمــا
للمـــوت كــأسٌ والمـــرءُ ذائقـــهُا

فكانت صرخاته في عكاظ إرهاصًا ينبي عن نبوة جديدة، أحيت لما جاءت سنن الترقب والنظر الذاكر، فزهد أصحابٌ ورثوها بما هنالك، فانقلبوا يصلحون للإنسان الواهم ما أفسدته شهواته، وما متاع أحدهم عند الوداع غير بُردة قصيرة جعلت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يبكي، ويعاف الطعام، ويقول:

" قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفن في بُردة، إن غُطي رأسه بدت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسه ، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا " (١).

* نسيان الموت أول الانحراف

وليس ذاك بكاء الأسى، حَزنًا أن لم يَرَ أخاه مصعبًا مترفًا، إنما هو بكاء الخشية من بعض مباح أن يكون حسنةً معجَّلة تمنعه الآجل، كما أفصح، ودموع حذر تخرجها روعة تجرد لجهاد يرى ذهاب أبطاله تباعًا، فيخلف من بعدهم خلف تكثر في يده الأموال، ويخاف أن يتنافسوها، فيتوقف نبض فتوح الهداية.

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٢١.

يشبه بكاؤه ذاك عبرة ظلّ يغص بها حَلق أبي الدرداء مرارًا وهو يقول: (**أبكاني فراق الأحبة: محمد وحزبه**) [١]، يُعبر بها عن وجله من جديد طرأ على سمت الجيل الثاني، مثلما يريد بها إظهار ألمه لفراق أخوة كانوا له سبب هداية وتثبيت، وفهمهم وفهموه، في تعامل مسترسل، ما التالي لهم - مهما حرص - بقادر على أن يُسلي عن قلب أبي الدرداء رضي الله عنه تسليتهم عنه. وكأنهم حالة ما زالت تستبد بكثير من الدعاة الغرباء، لا يستطيعون لها وصفًا.

لكنه حزن المجاهد الفقيه، ما كان ليهبط بأبي الدرداء إلى حسرات تستهلك الهمّة، بل أدى به إلى صعود سُلم التربية، فاعتلى درج مسجد دمشق، فقال: " **يا أهل دمشق:**

ألا تسمعون من أخ لكم ناصح! إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرًا، ويبنون شديدًا، ويأملون بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا وبنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا "[٢] ولبث في أهل دمشق سنين يخفف أثر هجمة المال، ثم أورث المقال أهله، فكان الرجل منهم يأتي أم الدرداء يستنصحها فيقول:

" **إني لأجد في قلبي داءً لا أجد له دواء. أجد قسوة شديدة وأملًا بعيدًا!** "

فتقول:" **اطلع في القبور واشهد الموتى** "[٣].

---

(١) الزهد لابن المبارك ٨٤.

(٢) الزهد لابن المبارك / ٢٩١.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٣٧١.

* إحياء الأمة بذكر الموت

وقارب الاستدراك في زمن الراشد الخامس أن يتم، لولا السم.

فقد واصَلَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الطريقة، فأرجف بذكر الموت قلوب جيله رهبة، فنفضت رانها ثم انثنى، فحرك إلى الشهادة حَنانها.

وما أكثر ما وقف عمر موقف أبي الدرداء على درج مسجد دمشق، ليجدد الوعظ القديم، ويقرر لهم:

" إن الأمان غدًا لمن حذر الله وخافه، وباع قليلًا بكثير، ونافذًا بباق".

حتى إذا أيقنوا صواب الصفقة راح يريهم من يومياتهم وواقعهم، بعين التأمل، ما لا تراه عين الغفلة، ويقول لهم: **" ألا ترون في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، وكذلك حتى تُردّوا إلى خير الوارثين؟**

ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشّيعون غاديًا إلى الله ورائحًا، قد قضى نحبه، وانقضى أجلُه ، وطُوي عمله، ثم تضعونه في صُدع من الأرض في بطن لحد، ثم تَدَعُونه غير موَسَّد ولا ممهّد، قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب ووُجّه للحساب، غنيًّا عما ترك، فقيرًا إلى ما قدّم ".

ولربما أجلس أحدهم أمامه وعلّمه، تعليمه عنبسة بن سعيد: " **يا عنبسة: أكثر ذكر الموت، فإنك لا تكون في ضيقة من أمرك ومعيشتك فتذكر الموت إلا اتسع ذلك عليك. ولا تكون في سرور من أمرك وغبطة فتذكر الموت إلا ضيّق ذلك عليك** " (١).

حتى إذا ربّى حاشيته، وخلصوا من وهم الأمل نجيًّا راح ينشر مذهبه في الأمصار، فيرسل على أعيانهم، فيأتونه، فيفشي لهم سِرّ القبر، وما هو عند أولي الألباب بِسرّ.

قال التابعي محمد بن كعب القرظي رحمه الله:

"لما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله **بعث إليّ وأنا بالمدينة فقدمت عليه ، فلما دخلت جعلت أنظر إليه نظرًا لا أصرف بصري عنه، متعجبًا، فقال: يا ابن كعب: إنك لتنظر إليَّ نظرًا ما كنتَ تنظره!**

قلتُ: متعجبًا.

قال: ما أعجبك؟

قلت: يا أمير المؤمنين: أعجبني ما حال من لونك، ونَحَلَ من جسمك ونفى من شَعرك.

فقال: كيف لو رأيتني بعد ثلاثة، وقد دلّيتُ في حفرتي، وسالت حدقتي على وجنتي، وسال منخري صديدًا ودودًا؟ " (٢).

---

(١) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٧٢.

(٢) الزهد للإمام أحمد / ٢٩٥.

obeikandi.com

فشاع خبره في الآفاق، حتى إذا أرسل إلى أعيان الكوفة بادروه مبادرة، وجلبوا شاعرهم أعشى همدان معهم، يعلن له قناعتهم وبراءتهم من أمل يطارده عمر، قد عرفوا جده في إجلائه عن دار الإسلام.

وينطلق الأعشى بين يدي عمر...

وبينما المرءُ أمسى ناعمًا جذلًا
في أهله معجبًا بالعيش ذا أَنَقِ
غِرًّا، أتيح له من حَينِهِ عَرَضِ
فَمَا تَلبّثَ حتى مات كالصَّعِقِ
ثُمّتَ أضحى ضحى من غِبَّ ثالثة
مُقنّعًا غير ذي روح ولا رَمَقِ
يُبكي عليه وأَدنوهُ لُمْظِلِمَةٍ
تُعلى جوانبها بالتُرب والفِلَقِ
فما تَزَوَّدَ مما كان يَجمعُهُ
إلا حَنوطًا وما واراهُ مِن خِرَقِ
وغيرُ نَفْحَةِ أعوادٍ تُشَبُّ له
وقَلَّ ذلك من زادٍ لُمنطِلِقِ

فتنهمر هاطلة دموع عمر، وتختلط بأصوات نشغاته، ليتجاوز تَرادّ صداها دهورًا تتعاقب، يقود المربين المسلمين.

* عودة إلى الرشد

ولئن توالى اليوم فراق الأحبة ووداع الرعيل الأول المتجرد المتواضع المؤسس للحركة الإسلامية المعاصرة، لنبكيه مع هجمة المال بكاء أبي الدرداء، أو بكاء سلمان الفارسي، وفي رواية أخرى حذرًا وغربة حين افتقدا ﷺ حزب محمد ﷺ فإن بكانا لا يحق له أن يهبط بنا إلى تأوهات تجاوزتها همتهما، ولابد لنا - مع بداية مرحلة جديدة تُرشِح دعوتنا لملء فراغ تركه فشل التطرفات القومية والشيوعية - من ارتقاء درجات الاستدراك التربوي، هامسين لكل داعية بمواعظ عمر، لتعود لنفسه فتوتها وإقدامها، وتطلعها الأخروي، فإنه قد طال التجوال في البطالة، ولربما حيّر، وامتد الركون إلى الاغترار وكأنه قد غيّر.

وكأن بالداع قد يبكي ... عليه أقربوهُ
وكأن القوم قد قاموا ... فقالوا: أدركوهُ
سائلوه، كلموهُ ... حرّكوه، لقنوهُ
حرِّفوه، وجِّهوهُ ... مدِّدوه، غمضوهُ
عجِّلوه لرحيلٍ ... عجّلوا لا تحبسوهُ
ارفعوه، غسلوهُ ... كفِّنوه، حنّطوهُ
فإذا ما لُفَّ في الأ ... كفان قالوا: فاحملوهُ
أخرجوه فوق أعوا ... د المنايا شيّعوهُ

فـــــإذا صــــــلوا عليـــــه قيــــل: هــــاتوا واقــــبروهُ
فــــإذا مـــــا اســـــتودعوه الأرض رهنًــــا تركـــــوهُ
خلـّـفــــوه تحـــت رمـــسٍ أوقـــــــروهُ، أثـقـــــــلوهُ
أَبعــــــدوهُ، أَســـــحقوه أوحَـــــــدوه، أفــــــردوهُ
ودّعـــــــوه، فـــــــارقوه أســــــلَموه، خلــّفـــــوه
وانثنــــوا عنـــه وخلّــــــــوه كــــأن لم يعرفـــوهُ(١)

* * *

(١) ومن الممكن أيضًا أن تقرأ القافية ساكنة.

obeikandl.com

8 تِلالنَا الهامِدة

لئن رأينا أبا الدرداء ﵁ بعد فراقه حزب محمد ﷺ باكيًا، فإنه سرعان ما انقلب ضاحكًا، ليقول:

" أضحكني :

مؤمل الدنيا والموت يطلبه .

وغافل ليس بمغفول عنه .

وضاحك بملء فيه ولا يدري أرضى الله أم أسخطه " [١] .

وإنما هو ضحك التعجب من صورة حياتية يشاهدها كل مراقب لحياة الناس، يرى خلالها أنماطًا من الغفلة تحرف شدةُ طمع تصاحبها بعضَ الناس عن رؤية مصير رهيب يتخطف غيرَهم من حولهم، وما لهم أدنى ضمان لدفعه لو جاءهم كما يجيء أولئك.

فالناس في غفلاتهم ورَحى المنيّة تطْحَنُ

وهي ضحكة قد تهجم على صاحبها لأول وهلة حين يحار في تفسير هذه الظاهرة، لكنها سرعان ما تتحول إلى شفقة ورحمة تأبى إلا أن تصدم الغافل صدمة إيقاظ تخرجه عن سكونه.

(١) الزهد لابن المبارك ٨٤/ ٥٥٤

obeikandl.com

رحمة حركت أبا الدرداء برفق فأتى إلى هذا الذي أضحكه فنقر بأصبعه على كتفه فالتفت، فهمس في أذنه أن:

(ويحك ؛كيف بك لو قد حُفِرَ لك أربعُ أذرع من الأرض) [1]

وما ندري مدى حظ ذاك المرء من التوفيق، إن كان انخلع من غفلته أم سَدر فيها ، ولكنا ندري أن همسة أبي الدرداء ما زالت حية، وأن ما ذرعه لم تزده الأيام سعة وطولًا، وأن قبل هذه الأذرع الأربعة وبعدها قصة متصلة المشاهد، يرويها الرواة لمن يلقي السمع وهو شهيد.

* يوم الحصاد

مشهدها الأول: يوم الحصاد: يوم يحصد الموت الروح كما يحصد المنجل الزرع.

وليس في التشبيه مفارقة، فإن حصاد هذه الأرواح يحوي مثل ذلك من الفوائد، من بين موت شهادة ظاهر نفعه، وموت دون ذلك يكون للغير سبب اعتبار وادكار.

وذلك ما صوره الشاعر حين خاطبك فقال:

ما أنت إلا كزرع عند خُضرته
بكلّ شيء من الآفات مقصودُ
فإن سَلِمتَ من الآفات أجمعها
فأنت عند كمال الأمر محصودُ

---

(١) الزهد لابن المبارك ٨٤/ ٥٥٤

أو قد يسمى هذا اليوم يوم الصراخ، وذاك حين يعرق الجبين، ويتتابع الأنين، وتكون الغرغرة، وتبرد الأعضاء، وتستبد السكرات، فيفتضح الضعف، فيعلو الصراخ.

باكيات عليك ينـدبن شَجوا
خافقاتِ القلوب والأكبادِ
يتجاوبن بالرنين ويذرفن
دموعًا تفيض فيض المزادِ

فيأتي من يحبسْهن جانبًا، ليغسلوك على عجل.

عجلة يضجر الغاسل معها إن تباطأ من يحمي الماء، فينادي: ألا إن وراءنا أشغالنا فاستعجلوا!!

كما هو الخلق القديم في الغاسلين، منذ عصر من قال:

كأن لم أكن إذ احتث غاسلي
وأحكم درجي في ثياب بياض

وما هي إلا أذرع أربعة من القماش الرخيص، كتلك من الأرض السبخة، يحملك بعدها أصحابك على الرقاب

فلا تنس يومًا تسجَّى على
سريرك فوق رقاب النَفَرَ

فإن كنت صالحًا: استبشرت تلك الساعة، ولبثت تصيح طربًا : قدّموني قدّموني. تصدق ما أخبر به النبي ﷺ حين قال:

" إذا وُضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت لأهلها : قدّموني . وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: ياويلها! أين يذهبون بها؟

يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمع الإنسان لصعق"[1].

* ثم يوم الرقاد

وتنتقل القصة إلى مشهد ثان يسمى: يوم الرقاد الطويل، يبدأ بملكين يفتنان الميت، ذكر خبرهما النبي ﷺ فقال: " أوحي إليّ أنكم تُفتنون في القبور قريبًا من فتنة الدجال؛ فأما المؤمن أو المسلم فيقول: محمد جاءنا بالبينات، فأجبنا وآمنا.

فيقال: نَم صالحًا، علمنا أنك موقن.

وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته " [2].

و ذلك هو الحوار المذكور في الحديث الآخر، أنّ: " العبد إذا وضع في قبره وتولّى وذهب أصحابه، حتى أنه ليسمع قرْع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه.

فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل ـ محمد ﷺ؟

فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعدًا من الجنة.

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ١٠٣، ٩/ ١١٦.

(٢) المرجع السابق نفسه.

قال النبي ﷺ : فيراهما جميعًا.

وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس.

فيقال: لا دَرَيت ولا تَلَيتَ.

ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين " [1].

فيستيقظ الدود لتلك الصيحة، ويهجم هجومه فيستسلم الرجل ويذعن ويأخذ يقول كأنه يستزيد:

ضعوا خدي على لحدي ضعوه
ومِن عَفْر التراب فوسِّدوه
وشُقوا عنه أكفانًا رقاقًا
وفي الرمْس البعيد فغيّبوه
فلو أبصرتموهُ إذا تقضت
صبيحة ثالثٍ أنكرتموه
وقد مالت نواظرُ مقلتيه
على وَجَناته، فرفضتموه

فهنالك يكون السكون، حيث تصفر الرياح على تلال هامدة واطئة، فيصل صفيرُها إلى آذان أمهاتٍ ثكالى يخرجن ببلاهة يقودهن الصفير إلى قبور أبنائهن، لتسأل كل واحدة منهن ابنها:

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ١٠٨.

بـــأي خـــديك تَبـــدّى الـــبلى
وأي عينيـــــــك إذًا ســـــــالا؟

فيجيبهن صوت بعيد، من حيث القبـر الأخير المنـزوي:

لم تبـــق غـــير جمـــاجم عَرِيـــتْ
بـــيضٌ تلـــوح، وأعظـــمُ نَخِـــرة

و يثـني آخر:

لا يدفعون هَوامًا عن وجوههم
كـأنهم خـشب بالقـاع منجَـدِلُ

أو يرد صوت ثالث:

هجـودٌ ولا غـير الـتراب حَـشية
لجنـــبِ، ولا غـــير القبـــور قِبـــابُ

أو يخبرهن رابع:

قـــد أصـــبحوا في بـــرزخ ومـحــلـــــة متــــــراخية
مـــا بيـــنهم متـــفـــاوت وقـبـورهـــم مـتـدانيـــة

فمحلها مقتــرب، وســاكنها مـغـتـرب، بـين أهــل موحـشين، وذوي محلة متــشاسـعـين، لا يستأنـسون بـالعمران، ولا يتواصـلون تواصل الإخوان، قد اقتربـوا في المنازل، وتـشاغـلوا عـن التــواصل، حتى طحنهم بكلكَلِهِ البلى، وأكلهم الثرى [١].

---

(١) أسطر لبعض الزهاد.

obeikandl.com

وبينما هم كذلك إذ جاءهم من ليس هو بفضولي، وعساه عند عمر بن عبد العزيز أو عنبسة أو القرظي يتدرب، فيسألهم:

أين الوجوه التي كانت محجّبة

من دونها تُضربُ الأستار والكُلَلُ

ويميل بأذنه يريد جوابًا منهم ما هم بقادرين عليه، فتنوب عنهم التلة الصغيرة تجيب..

و أفصح القبرُ عنهم حين ساءلهم

تلك الوجوهُ عليها الدودُ تقتتلُ

قد طالَ ما أكلوا دهرًا وما نعِموا

فأصبحوا بعد طول الأكل قد أَكِلوا

فيتولى عنهم بجناح من الرهبة، خفيض، ودمع على الخدين يفيض، يودع ويندب ويقول:

أهل القبور أحبَّتي — بعد الجذالة والسرور

بعد الغَضارة والنضارة — والتنعّم والحُبور

بعد الحِسان المؤنسا — ت وبعد ربّات الخدور

أصبحتم تحت الثرى — بين الصفائح والصخور

❋ حساب وكتاب

الإحسانُ فيظلون بعد وداعه في انتظار مشهد ثالث يسمى: يوم البعث .

يوم انشقاقُ الأرض عن أهل البلى فيها، ويبدو السخط والرضوانُ

يوم القيامة، يوم يُظلم ظلم الظالمين ويشرق

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر:٥٦]

وتنادي أخرى: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى].

وتستغيث أخرى: يا ليتنا ﴿نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣].

فهنالك ثالِثة يكون الوجل:

هناك إن كنتَ قدَّمت مُدخرا

تُسقى من الحوض ماءً غير ذي أسَنِ

وتُنشر الصحفُ فيها كل مُحتقبٍ

من المخازي وما قدّمت من حَسَنِ

قد كنتَ تنسى وتلكَ الصحفُ محصية

ما كنت تأتي، ولم تَظلِم ولم تَخُنِ

فالسعيد ذاك اليوم من كانت له في يومنا هذا بهذا عِبرة، تَستخرج من عينه وقلبه عَبرة، تنطق لسانه رهبة وأسفًا، ليدندن في الليالي:

واحسرتي، واشِقوتي من يوم نشر كتابيه

واطولَ حُزني إن أكن أوتيته بشماليه

وإذا سُئلت عن الخَطأ ماذا يكون جوابيه ؟

و احَرَّ قلبي أن يكونَ مع القلوب القاسيه
كلا ولا قدمتُ لي عملًا ليوم حسابيه
بل إنني لشقاوتي وقساوتي وعذابيه
بارزت بالزلات في أيام دهرٍ خاليه
من ليس يخفى عنه من قُبح المعاصي خافية

* ما بعد هذا إلا التشمير

فأما صاحب القلب الحي فنقُصّ له قصة الأيام الثلاثة هذه ، وأما أموات القلوب فذرهم في ركستهم يتخبطون. ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الحِجر]

تَمتّعَ آكلةِ الخَضِرَةِ التي حدثنا عنها رسول الله ﷺ:

" آكِلة الخَضِرَة أكلت.

حتى إذا امتَدت خاصِرتها استقبلت الشمسَ.

فاجترت وثَلطت، وبالت.

ثم عادت فأكلت " .

هكذا كالخرفان تمامًا، يأكلون وينامون، فيتغوطون، فيعودون إلى الأكل، ولا شيء آخر.

تعست حياتهم!!

فتدبر أمرك أيها المسلم وتأمل.

وقف ولا تعجل.

فإنك لممتحَن، وبكسبك مرتهَن.

وإنه:

سيأتيك يوم لست فيه بمكرَم   بأكثر من حَثو التراب عليكا

بل يرى أصحابك ذلك غاية الإكرام لك.

يقولون: كان رحمه الله صديقًا لنا، ولابد أن نكرمه، وواجب أن نحضر لنحثو التراب عليه.

وكم قد رأينا فتى ماجدًا   تفرّع في أسرة ماجده

رماه الزمان بسهم الردى   فأصبح في التلة الهامدة

فاذكر واتعظ ولا تنشغل بالأمل عن ذكر قصة الحصار والحصاد والأجل عَسَيتَ بفضل الله تنجو، وتفوز ببعض ما المؤمن يرجو...

* * *

obeikandl.com